

الإعجاز الصوتي في سورة الفاتحة

د. مليكة النوي

Malikaislam@gmail.com

قسم اللغة العربية

جامعة باتنة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم الصورة الكاملة لهذا الكتاب المقدس، انطلاقاً من دراسة أبسط مكونات أي نص وهي الأصوات. ولتعميق هذه الدراسة كانت سورة (الفاتحة) النموذج التطبيقي. فحاولت ربط العلاقة بين الصوت ومعنى الكلمة، متجاوزة ذلك إلى إحصاء الأصوات الموظفة، والأصوات المسقطة، وما حققته من دلالات إعجازية وفضاءات جمالية.

وقد خلصت الدراسة إلى التأكيد على أن عدد آيات الفاتحة مرتبط بالأصوات المسقطة. كما أن حضور أصوات معينة وغياب أصوات أخرى حمل دلالات إعجازية ارتبطت في معظمها بأعداد فردية دلت على وحدانية الله. كل هذا يضاف إلى الإعجاز الصرفي والبلاغي والتركيبى والدلالي لهذا الكتاب المقدس.

Resume:

This study aims to present the complete image of this holy book, starting from studying the simplest components of any text which are phonemes, and to deepen this study; « SURAH AL FATIHA » (the opener) was the practical example, so I tried to find the relationship between phoneme and the word's meaning. Then, I went further to count the used phonemes, and the unmentioned ones, and the miraculous significations and aesthetic spaces they have.

The study has led us to confirm that the number of verses of « AL FATIHA » (the opener) is related to unmentioned phonemes. Also the presence of some phonemes and the absence of some others have brought some miraculous significations that were mostly related to uneven numbers signifying the uniqueness of « ALLAH ». All this to be added to grammatical, rhetorical, syntactical, and semantic cogency of this holy book.

مقدمة:

سورة الفاتحة من السور المكية، حوت كثيرا من الأسرار اللغوية، فشددت إليها العقول وحبّت إليها الأفلام، ناهيك عن الأسرار العقديّة، والقيم الدينية. وقد اختزلت في ثناياها إعجازا صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا ترجم خصوصيات هذه السورة التي أفردت لها دراسات كثيرة، فمنهم من اهتم بالعتبة الأولى وهي العنوان "الفاتحة" ومنهم من ركّز على دراسة الصوت وعلاقته بالكلمة وبالآية وبالمضمون العام للسورة؛ في حين اهتم آخرون بالصيغ الصرفية كالمصدر والصفة المشبهة واسم الفاعل وما قدمت هذه الصيغ من دلالات. أما المستوى النحوي فحضوره قوي عن طريق رصد الجمل الاسمية والفعلية وأدوات الربط وعلاقتها بمحتوى السورة، ليهتم آخرون بدراسة المستوى الدلالي فدرسوا معاني الكلمات، وتتبعوا مضمون السورة وما اشتملت عليه من أمور التشريع والعبادة والإيمان والتوحيد. فالفاتحة اشتملت على كل ما يأخذ بيد العبد ليقوده إلى محراب النجاة.

وبذلك كانت السورة فاتحة الكتاب، وفاتحة الصلاة، ولتحمل بذلك أسراراً عقديّة ولغوية جعلت السورة بهذه الهندسة المعمارية الدقيقة، فمفردات السورة وعباراتها إنما قدرت من تदन عليم خبير، أما الحروف فصبت بمقايير ومقاييس تعجز عنها مقاييس البشر.

مشكلة البحث:

سورة الفاتحة لها من الخصوصيات ما جعلها فاتحة الكتاب، تقرأ رغبة ورهبة، دعاءً وتضرعاً، ترتلها الألسنة في الصلاة وفي سائر أمور الحياة، ما جعل العلماء يمدون القول في أسماؤها، ويفصلون الحديث في تفسيرها. وتتمحور مشكلة هذه الدراسة حول محاولة الكشف عن سر إسقاط سبع أصوات على الفاتحة.

ومن هنا يمكن طرح جملة من الأسئلة على النحو الآتي: هل إسقاط هذه الأصوات يرجع إلى إعجاز صوتي في سورة الفاتحة؟ وهل هذا الإعجاز تترجمه الجداول والحسابات؟ أم يتجاوز ذلك إلى علاقة الصوت بالكلمة وعلاقة الكلمة بالمضمون العام للسورة؟ هل للأصوات قيم تعبيرية؟ وهل تختلف هذه القيم إذا اختلف موقع الصوت داخل الكلمة؟ وماذا حققت الأصوات المسقطّة من دلالات ومعانٍ؟ للإجابة عن هذه الأسئلة تم اعتماد خطة شملت جملة من العناصر، جمعت في ثناياها شتات البحث ليقدم في صورة علمية.

أهداف البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز دور الأصوات الموظفة في سورة (الفاتحة) في ترجمة المقاصد التي اشتملت عليها السورة.
- الكشف عن سر الإعجاز في سورة (الفاتحة) باعتماد أبسط مكونات أي نص وهي الأصوات.
- ربط العلاقة بين الأصوات ومعانيها.
- إبراز دور التشكيل الصوتي في تحقيق جماليات اللفظ.

أهمية البحث:

- يعتبر إعجاز القرآن من كبرى القضايا التي شغلت الدارسين باختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، فأصبح البحث فيه ضرورة ملحة لكشف مكن إعجازه.
- تسهم هذه الدراسة في بيان دور الأصوات الموظفة في (الفاتحة) في ترجمة الحالة النفسية، وإبراز الانفعالات الداخلية.
- إن الإعجاز الصوتي في سورة (الفاتحة) جزء من كل، وأن هذا الجزء لا يفهم إلا في إطاره العام وهو النظم.

منهجية البحث:

إن سرّ نجاح العمل مرهون بالمنهجية المتبعة فيه، ولما كانت فكرة العمل (الإعجاز الصوتي في سورة الفاتحة)، فإن المنهج الوصفي التحليلي كان جديراً بالتطبيق. لقد تمّ إحصاء الأصوات الموظفة لبيان دورها في تشكيل قاعدة البناء اللغوي، وعلاقة المنظومة الصوتية بمضمون السورة.

كما تمّ إحصاء الأصوات المسقطة من سورة (الفاتحة) في محاولة لربطها ببداية سور القرآن، أو ببعض الألفاظ الدالة على النعيم، في إشارة إلى أن الأصوات لها علاقة بالمعنى الذي جعلت من أجله.

ولتحقيق غايات البحث تم الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع، أما المصادر فهي العين التي كانت من خلالها الإطلالة على جهود المفسرين والغويين الذين أثروا الدراسات القرآنية ومن المصادر: "دلائل الإعجاز" و"المقصد في شرح الأيضاح" لعبد القادر الجرجاني و"التفسير الكبير" للفخر الرازي، و"أدب الكاتب" لابن

قتيبة، و"سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي، وغيرها. إضافة إلى مجموعة من المراجع القيمة مثل: "النظرية اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ" محمد صغير بناني، و" أثر الدراسات القرآنية في تطور الدرس النحوي" عفيف دمشقية. وقد أسهمت هذه المصادر والمراجع في إثراء البحث.

الفاحة:

العنوان أولى العتبات التي تأخذ بيد الباحث وتقوده إلى عالم النص، والعنوان خطاب قصير مشحون بالدلالات. فـ(الفاحة) اختزال لسورة كاملة، لذا يحتاج هذا العنوان لدارس متخصص حتى يفك شفراته. هذا ما جعل جميل حمداوي يصف العنوان "بالمعادلات الكبرى"¹. فهل ثمة علاقة بين الطرفين: العنوان (الفاحة) وبين النص (السورة)؟ لإثبات ذلك علينا أن نعرف ما معنى (الفاحة)؟ وماذا حملت السورة من أفكار وقيم لتسمّى الفاتحة؟

فتح: "الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان، أحدهما: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه. والثاني يدرك بالبصيرة كفتح الهمّ وهو إزالة الغم"². وجاء في المنجد العربي "الفاحة: من الشيء ج فواتح: أوله. ومنه فاتحة الكتاب"³.

وتباينت الآراء في تحليل تسميتها "واعلم أن هذه السورة لها أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى، فالأول: فاتحة الكتاب، سميت بذلك الاسم لأنه يفتح بها في المصاحف والتعليم، والقراءة في الصلاة، وقيل سميت بذلك لأن الحمد فاتحة كل كلام... وقيل لأنها أول سورة نزلت من السماء... والثاني: سورة الحمد، والسبب في أن أولها لفظ الحمد. والثالث: أم القرآن... والاسم الرابع من أسماء هذه السورة: السبع المثاني"⁴.

فالعنوان (الفاحة) اختزل سورة كاملة، من هنا كان العنوان محفزا للدارس عل التفاعل الإيجابي معه ليغوص في قلب السورة، وليفتح بذلك جدلا بين العنوان

¹ جميل حمداوي، "السيمبوتيقا والعنونة"، مجلة عالم الفكر، ع3، الكويت: يناير، (مارس، 1979)، ص. 106.
² الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1972)، ص. 383.

³ مجموعة من الأساتذة، المنجد العربي، (القاهرة: د. ت)، ص. 567.

⁴ الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ط2، (طهران: دار الكتب العلمية، د. ت)، ص. 173-175.

والسورة "فالعنوان يقوم على تركيب نصي يعدّ مفتاحاً منتجا ذا دلالة، ليس على مستوى البناء الخارجي للعمل فقط، بل يمتد إلى البنى العميقة ويستقر فواصله، ويدفع السلطة الثلاثية إلى إعادة إنتاج تتيح لعوامل النص الانفتاح على أكثر من قراءة"¹. فالعنوان يحمل دلالات تفتح أمام الدارس استثمار منجزات التأويل، ويحيله على قراءات شتى. ليكون العنوان العصا التي يتوكأ عليها الدارس لمعرفة خبايا النص، بما يحويه من طاقة سحرية تشد القارئ وتغريه ليجر في مجاهل النص، ولربط العلاقة بين العنوان ومحتوى النص كانت هذه القراءة:

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) ← نحمده فيرحمنا.

(إياك نعبد وإياك نستعين) ← نعبده فيعيننا.

(اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) نستهديه فينعم علينا. فأی فتح أفضل من أن يُرَحَم العبد وبعان ويُنعم عليه من خالق العباد؟

وما يمكن استنتاجه من هذا العنوان ما يلي:

- إنها جاءت معرفة لتكون دالة على فاتحة الكتاب المقدس دون سواه.
- قراءتها تفتح أبواب الخير، لأنها تبدأ بالحمد والحمد شكر.
- الفاتحة اسم فاعل من الفعل الثلاثي (فتح) ولا شك أن ثمة علاقة بين الصيغة والمعنى، فالاسم من دلالاته: الثبات، والمعنى ثبات هذا الوصف (الفتح) إضافة إلى عدم تحوله.
- ولما كانت المقاصد التي تضمنتها السورة [العقيدة، العبادة، التوحيد] ثابتة فإن صيغة الاسم هي الأنسب.
- وللفاتحة من المزايا ما يستوقف أي دارس رغبة للمعرفة، ومن الأحاديث التي وردت في السورة الحديث القدسي الذي رواه مسلم "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أتيتني عبدي. وإذا قال: (ملك يوم الدين) قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلى عبدي. فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل. فإذا قال:

¹ إبراهيم بادي، "دلالة العنوان وأبعاده في مودة الرجل الأخير"، مجلة المدى، ع26، (سوريا: 1999)، ص. 114.

(اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين... ولا الضالين) قال: هذا لعبيدي ولعبيدي ما سأل.¹ ومن مزايا سورة الفاتحة ما رواه حذيفة بن اليمان عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن القوم ليعتث الله عليهم العذاب حتما مقضيا، فيقرأ صبي من صبيانهم في المكتب "الحمد لله رب العالمين" فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بسببه العذاب بأربعين سنة"²، فاستنادا إلى هذين الحديثين تكون الفاتحة من المنجيات. وقبل الولوج إلى عالم هذه الأصوات تستوقفنا أسماء خمسة جمعت في سورة واحدة فأعطتها من الفضل والمزية ما جعلها فاتحة الكتاب. وهذه الأسماء هي: الله- الرب- الرحمن- الرحيم- الملك. "فاسم الله منبع الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع. واسم الرب يدل على التربية بوجود الفضل والإحسان. واسم الرحمن يدل على التربية في معرفة المبدأ. واسم الرحيم في معرفة المعاد حتى يحترز على ما ينبغي، ويقدم ما ينبغي. واسم الملك يدل على أنه ينقلهم من دار الدنيا إلى دار الجزاء"³.

تعريف الصوت والحرف والفرق بينهما:

الأصوات مفتاح الدراسة اللغوية، ولا يمكن لأي تحليل لغوي دقيق أن يتجاوز دراسة الصوت، من هنا كان الاهتمام بتعريف الصوت والحرف والفرق بينهما. فعرف ابن سنان الصوت بأنه "مصدر صات الشيء، يصوت صوتا فهو صائت، وصوت تصويئا فهو مصوت، وهو عام ولا يختص، يقال: صوت الإنسان وصوت الحمار"⁴. فالصوت لا يقتصر على الإنسان وإنما يكون كذلك للحيوان والجماد. وللأصفهاني تعريف أكثر تفصيلا "الصوت هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين وذلك ضربان: صوت مجرد عن تنفس بشيء كالصوت الممتد، وتنفس بصوت ما، والمتنفس ضربان: غير اختياري كما يكون من الجمادات ومن الحيوانات، واختياري كما يكون من الإنسان وذلك ضربان: ضرب باليد كصوت العود وما يجري مجراه، وضرب بالفم والذي بالفم ضربان: نطق وغير نطق، وغير النطق كصوت الناي،

1 - أبو الحسن مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، (القاهرة: دار الغد الجديد، 2007)، ص.145.

2 - الرازي، المرجع السابق، ص.178.

3- المرجع نفسه، ص.289.

4 - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1982)، ص.15.

والنطق منه إما مفرد من الكلام وإما مركب كأحد الأنواع من الكلام".¹ ولما كان مصدر الصوت مختلفاً مميّز الأصفهاني بين الأصوات الاختيارية التي تصدر من الإنسان، وغير الاختيارية التي تصدر من الحيوان أو الجماد، وعليه فإن الكلام يبقى حبيس النفس ما لم تترجمه الأصوات، فالوجود الفعلي للتراث الإنساني ما كان ليكون لولا الأصوات. "فالصوت يظهر الكلام المفوظ، كما يظهر الحبر الكلام المكتوب".² وبلغ اهتمام الدارسين العرب بالظاهرة الصوتية أنهم لم يكتفوا بتعريف الصوت بل ذكروا الكيفية التي يحدث بها الصوت و"أنه كيفية تحدث من تموج الهواء المنضغط بين قارع ومقروع".³ ففوة الصوت وضعفه وزمن وصوله كلها مرتبطة بعوامل منها: كيفية خروجه ومكان خروجه وزمان خروجه، فالصوت المنقطع من مكان بعيد يختلف في وقعه وفي زمنه عن صوت اندفع من مكان قريب، والصوت ليلاً يكون وقعه أشد. ورغم هذه التعريفات للصوت إلا أن أصوات القرآن في نظمها وتأليفها أجل وأعظم من أن تخضع لقاعدة إنسانية، وتبقى الدراسات محاولات نسبية لا غير.

ولما كان الالتباس حاصلًا بين الصوت والحرف جاء التفريق بينهما فقال ابن سنان: "فالحرف في كلام العرب يراد به حد الشيء وحدته، ومن ذلك حرف السيف إنما هو حده وناحيته... وسميت الحروف حروفاً لأن الحروف حد منقطع الصوت، وقد قيل: إنها سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح، كحروف الشيء وجهاته".⁴ فالوجود الفعلي للحرف تترجمه الكتابة، أما الوجود الفعلي للصوت فيترجمه النطق.

ولنا أن نتساءل لماذا هذا الاهتمام بالصوت؟ ألكونه يمثل المستوى الأول في التحليل اللغوي؟ أم لأنه وسيلة لإخراج ما في الذهن؟ أم لأن الدارس العربي قديماً ربط سر إعجاز القرآن به؟ فنقول: إن هذه مجتمعة تترجم هذا الاهتمام.

¹ - الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت)، ص. 296.

² - محمد الصغير بناني، النظرية اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994)، ص. 111.

³ - الرازي، المصدر السابق، ص. 29.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 23.

فالنص القرآني ما كان ليفتح أبوابه للدارسين لو لم تكن مطيبتهم الأولى الدخول من عالم الأصوات متدرجين إلى بقية المستويات. هذا ما حدا بالجرجاني إلى التمييز بين نظم الحروف و نظم الكلم "ذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق".¹ فالحرف لا يحقق دلالة إلا مضموما لبقية حروف الكلمة بطريقة مخصوصة؛ من ذلك عدم الجمع بين حروف متقاربة في المخرج لئلا يحدث الثقل والتنافر لأن العربية لغة تجانس وخفة.

وللأصوات صفات كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والترقيق والتفخيم، إلا أن هذه الأوصاف لا تبدو بصورة جلية إلا إذا تحولت الأصوات إلى كلمات. لأن الأصوات تتأثر بما قبلها، فقولنا: والله يكون نطق اللام مفخماً، أما قولنا بالله فيكون نطق اللام مرفقاً، فالفتحة التي سبقت اللام (و)، والكسرة التي سبقت اللام (ب) كان لهما تأثير على نطق الكلمة (الله).

وإذا كان المتفق عليه أن الأصوات لا تحقق دلالات معينة بمعزل عن سياقها داخل كلمة، إلا أن ثمة حروفاً لها معانٍ متفق عليها بين علماء اللغة، فـ(لم) معناها النفي والقلب، و(لن) للنفي، و(هل) للاستفهام، و(هلا) للتحضيض، وذلك ما ذكره الجرجاني نقلاً عن أبي علي فقال: وقال الشيخ أبو علي: "والحرف ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، نحو لام الجر وبائنه، وهل، وقد، وثمّ، وسوف، وحتى، وأما".² إلى أن هذه المسلمات تؤخذ بحذر لأن (الباء) قد تعرب حرف جر زائد، وما بعدها يعرب حسب موقعه من الجملة. أما (حتى) فتكون ناصبة إذا دخلت على الفعل

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط5، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004)، ص.49.

² عبد القاهر الجرجاني، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم بحر المرجان، ج1، (بغداد: منشورات دار وزارة الثقافة، 1982)، ص.84.

المضارع، وتكون جارة كقوله تعالى: ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾¹. كما تكون (حتى) حرف عطف كقولنا: مات الناس حتى الأنبياء. ويتواصل المد المعرفي مع دارسي الإعجاز للوصول إلى مكنم المزية في القرآن الكريم، لتكون أعمالهم فتحة للعربية، لأنهم درسوا كل ما له علاقة بالنص القرآني من صوت ولفظ ومعنى وأسلوب، فهذا الصوت الذي يعبر عن خبايا النفس ويجلجل في الآفاق له رموزه المتعارف عليها في كل لغة من اللغات، ورمزه في العربية هو الحرف يقول البقلاني: "الحروف رموز للأصوات"².

وتجاوزت الدراسات القديمة تعريف الصوت إلى تحديد القيمة الدلالية له "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج فيه مدًا أو غنة، أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلى الإعجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوهما مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى"³. فتتابع أصوات الفاتحة بطريقة معينة تحقق دلالات تتم عن ذاك الجو الرباني الذي يستشعره المؤمن وهو في رحاب فاتحة الكتاب: شعور بالأمل، بالخشوع، شعور بالراحة النفسية تترجمه موسيقى الأصوات التي جعلت القلوب تخشع عند سماع القرآن.

وليس معنى ذلك أن المزية كل المزية للصوت بمعزل عن موقعه في الكلمة، بل إن كل المستويات تضافرت لتحقيق هذا التأثير، فمن أراد أن يستوعب سورة الفاتحة بل وكل سور القرآن فعليه أن ينطلق من معرفة الأساس (الصوت) وأن تكون له دراية بالصرف والنحو والدلالة، يقول ابن قتيبة: "وليست كتبنا لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتاب إلا بالاسم، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب: فعرف الصدر والمصدر، والحال

¹ - سورة القدر، الآية:5.

² - عبد الرؤوف مخلوف، البقلاني وكتابه إعجاز القرآن، (بيروت: منشورات مكتبة الحياة، 1978)، ص.152.

³ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1995)، ص ص.215-216.

والظرف، وشيئا من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الواو، والألف عن الياء وأشباه ذلك".¹

فالدارس العربي كان على وعي تام بضرورة معرفة فروع علم اللغة لتكتمل صورة الباحث الحقيقي. فابن خلدون في المقدمة عقد فصلا لعلم اللسان العربي، تناول فيه: علم النحو، وعلم اللغة، وعلم البيان، وعلم الأدب، كما عقد فصلا آخر تحت عنوان: علم أسرار الحروف. فانظر كيف كان العربي القديم ينظر إلى خريطة النص الأدبي على أنها كل لا يتجزأ، فرغم اهتمامه بدراسة الأصوات والحروف، وبقية مستويات اللغة من المستوى المعجمي، والصرفي والتركيبى والبلاغي والدلالي إلا أنه أقرّ أن دراسة كل مستوى على حدة ما هو إلا إجراء منهجي تعليمي إضافة إلى إعطاء كل مستوى من المستويات حقه من الدراسة والتحليل.

وفي العصر الحديث يطل علينا رومان جاكبسون Jakobson والذي يؤكد على ضرورة ربط الأصوات بمعانيها "فكي نتمكن من وصف النظام الفونولوجي للغة معينة، أي نظام الوسائل الصوتية التي تميز اختلاف معاني الكلمات، يلزمنا تحديد وتصنيف كل عناصر هذا النظام، لحل هذه المسألة يلزمنا أن ننظر إلى العناصر من زاوية وظيفتها في لغة معينة، كل محاولة خارجة لوصف العناصر الصوتية للغة ما، كل محاولة لتصنيف لغة دون الاهتمام بعلاقتها مع المعنى مصيرها الفشل".² فإذا سلمنا بوجود علاقة بين الصيغة والمعنى فلا شك أننا نسلم بوجود علاقة بين الصوت ومعناه. لأن الصيغ ما هي إلا أصوات ضمت لبعضها بطريقة مخصوصة.

وما نخلص إليه أن الصوت عام، والحرف خاص. لأن الصوت يسند للإنسان والحيوان والنبات والجماد. فنقول: صوت المؤذن، وصوت الحمار، وصوت الشجر، وصوت الريح.

¹ - عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (القاهرة: دار الطلائع، 2005)، ص ص 16-17.

² - مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا، ط1، (بيروت: المكتبة العصرية، صيدا، 1998)، ص 75.

علاقة الأصوات الموظفة في الفاتحة بمحتوى السورة:

تحتوي سورة الفاتحة على شبكة من العلاقات الصوتية شكلت هندسة فنية، وإيقاعا موسيقيا مؤثرا. فتجاور الأصوات جاء بطريقة فريدة تتم عن وجود أسرار بين هذه الأصوات؛ تحتاج إلى من يكشف عنها النقاب. ورغم تنوع الأصوات إلا أن الميم والنون أظهر الأصوات الموظفة في (الفاتحة). وما زادهما وضوحا أنهما مثلا فاصلة الآيات (العالمين، الرحيم، الدين، نستعين، المستقيم، الضالين) والميم والنون صوتان مجهوران بين الشدة والرخاوة، ومخرجهما التجويف الأنفي، وتعالقهما بهذه الطريقة كشف عن الأمل (الرحمن، الرحيم، ملك يوم الدين) وعلى الانقياد (نعبد، نستعين) ولا ينقاد الإنسان إلا إذا حداه خوف أو أمل.

ولمّا كان الإنسان المؤمن يستشعر القرب من الله، كانت هذه الأصوات الموظفة أكثر تعبيراً عن الجوانب النفسية التي أرادت السورة الكشف عنها: الأمل، الرجاء، الخوف، وهذه المفاهيم لا تفهم إلا في إطار هذا التشكيل الصوتي. إلا أن النبيين يرون أن لا علاقة بين الأصوات ومعانيها، ويؤكدون على استقلالية المعنى اللغوي عن الصوت، إلا أن المتمعن في سورة (الفاتحة) وغيرها من سور القرآن يلحظ وجود علاقة بين الصوت وبين الكلمة التي وظف فيها، فإذا توقفنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾¹. فإن صوت السين هو الصوت المعتمد بكثرة وقد تكرر عشر مرات، وهو صوت مهموس "ومعنى الهمس فيه أن يضعف الاعتماد في الصوت حتى يجري معه النفس".² كما أنه من الأصوات الرخوة "التي لا تمنع الصوت أن يجري فيها".³

فالإنسان في حضرة الذات الإلهية في تضرعه وفي رجائه يستعمل الأصوات اللينة. وتوظيف الصوت المهموس (السين) دلالة على التقدير والإجلال، لأن المقام مقام التضرع والرغبة والرهبة؛ تضرع إلى رحمته، ورهبة من مقامه، ورغبة في عونه. قال تعالى: ﴿وَوَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾⁴. وتخصيص

¹- سورة الناس الآية. 1-4.

²- الخفاجي، المرجع السابق، ص.20.

³- المرجع نفسه، ص. 20.

⁴- سورة طه الآية. 108.

الصوت لكونه أعم من النطق والكلام".¹ فتوظيف أصوات معينة يأخذ بيد القارئ ليلج عالم النص مستكشفا شبكة العلاقات الصياغية، موضحا علاقة الصوت بالتركيب.

وابن جني كان سباقا إلى مثل هذا التحليل، فهو يرى أن تركيب أصوات الحروف بطريقة معينة يدل على الحدث الذي يشير إليه اللفظ أي: وجود تطابق بين الصوت واللفظ المفرد والمعنى فيقول: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج مثلب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الحروف المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتنونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خضم، قضم، فالخضم لأكل الرطب؛ كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقضم للصلب لليابس؛ نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك... فاختراروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث".² فبحسب مرهف وذوق رفيع أدرك ابن جني أن للفونيمات دورا في الدلالة، فما حدث من إبدال بين الخاء والقاف تولدت عنه دلالة جديدة، والشيء نفسه مع كلمتي النضخ والنضح، فالخاء لشدتها جعلت لاندفاع الماء بقوة، والحاء لرقتها جعلت لانسياب الماء في رقة وبطء. فابن جني يشير إلى أن دراسة الأصوات تمر عبر مستويين: دراسة الصوت من زاوية النطق بتحديد سماته الفيزيولوجية وهو ما يعرف بعلم الأصوات. أما المستوى الثاني فيسلط الضوء على دور اختلاف الأصوات في اختلاف المعنى، وتتجاوز الدراسة دور تغيير الصوت إلى دور تغيير الحركة وما ينتج عنه من اختلاف في المعنى مثل (بَرّ، بُرّ، بَرّ)، فما يحدث من إبدال للصوائت و للصوامت ينتج عنه اختلاف في المعنى.

كما تناول ابن جني اختلاف موسيقى الحروف تبعا لطول المقاطع أو قصرها "تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، ألا ترى أنك تبتدئ الحرف من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرسا ما، فإن انتقلت عنه راجعا

¹ - الأصفهاني، المرجع السابق، ص. 296.

² - ابن جني، عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق، عبد الحكيم بن محمد، ج2، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، 1997). ص. 104.

منه، أو متجاوزا له ثم قطعت أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول".¹ ولعل أجراس أصوات الفاتحة خير دليل على ذلك حيث اختلفت موسيقاها، والسبب تنوع المقاطع بين الطول والقصر، وهذا التنوع مرتبط بالأصوات التي سبقت على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب.

أصوات الفاتحة:

أصوات العنوان (الفاتحة) سبع بعدد آيات السورة.

الألف: تكرر أحد عشر مرة وهو عدد فردي.

اللام: تكرر واحدا وعشرين مرة وهو عدد فردي.

الفاء: حرف أسقط من آيات السورة.

التاء: تكررت ثلاث مرات وهو رقم فردي.

الحاء: تكرر خمس مرات وهو رقم فردي.

فالممتنع يدرك أن الأصوات المكونة للعنوان تكررت في السورة بطريقة فردية، وفي ذلك إعجاز صوتي يدل على وحدانية الله. فإذا حذفنا الحرف المكرر (الألف) و(التاء) الأخيرة حصلنا على كلمة الفتح.

إذ كشفت أصوات العنوان عن ثلاث صوامت متتالية [ا- ل- ف] يليها صائت وهو حرف المد [ا] تليه ثلاث صوامت أخرى [ت- ح- ت] فجاءت حروف الكلمة متألفة كأن بينها تعارفا ونسبا. فإذا استثنينا الصوامت السبع التي لم تذكر في السورة، فإن عدد الأصوات المذكورة واحد وعشرون صوتا، وهذا العدد يقبل القسمة على سبعة، كما يقبل القسمة على ثلاثة وهي أعداد فردية، ويكون الناتج فرديا كذلك، كما أن سبعة تقبل القسمة على نفسها ليكون الناتج واحدا يشهد على وحدانية الله.

الإعجاز الصوتي في سورة الفاتحة:

إذا كانت أصوات العربية قد حصرت في ثمان وعشرين صوتا باستثناء الألف و"التي لا تعد من الصوامت أو الحروف شأنها شأن الواو والياء الداليتين على

¹ - ابن جني، عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندواي، ج1، (دمشق: دار القلم، 1985)، ص.6.

المد. ولكن بخلاف هذين الرمزين الإملائين اللذين لهما وضع مصوتي واضح مثل ورودهما في "قوم، عوض، ميل، نية" فإن الألف لا تستطيع أن تكون إلا رمزا دالا على الفتحة¹. فإن سورة (الفاتحة) أسقطت منها سبع أصوات ليكون العدد واحدا وعشرين صوتا. وسنحاول ربط هذه الحروف المسقطة بالإعجاز الصوتي في سورة الفاتحة، والأصوات المسقطة هي:

الجيم: حنكي، شديد، مجهور.

الثاء: أسناني، رخو، مهموس.

الخاء: لهوي، رخو، مهموس.

الزاي: أسناني، رخو، مجهور.

الشين: حنكي، رخو، مهموس.

الظاء: بين الأسنان، رخو، مجهور.

الفاء: شفوي-أسناني، رخو، مهموس.

هذا التصنيف لكانتينو (Jean Cantineau)²، وهناك تصنيفات كثيرة تقترب من هذا التصنيف في بعض الأصوات، وتختلف معه في أخرى.

فأصوات الفاتحة سبع بعدد الأصوات المسقطة من السورة، ونحن إذ نتأمل أصوات السورة ضمن مفرداتها وضمن سياقها العام نشعر بأننا أمام زخم من الأحداث المتلاحقة، وأن ثمة حراكا لا ينتهي، حراكا بشريا تجاه الذات الإلهية: حمداً لخالق الكون، حمدا لرحمن رحيم، حمدا لملك يوم الدين. ويتوسط هذا البناء الأسلوب المتفرد (إياك نعبد وإياك نستعين) والذي يترجم الإقرار والاعتراف بعبادته تعالى وبعونه دون سواه. أما نهاية السورة فقد تضمنت طلب الهداية. فانظر إلى هذا الترتيب المنطقي الذي يترجم إحكام كتاب لا يتخلله النقص، ولا يتسرب إليه التفاوت. وما وصلت إليه أن محاور السورة يمكن جمعها بهذه الطريقة.

¹ - حركات، المرجع السابق، ص. 86.

² - بروفيسور بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، اهتم بالفونولوجيا واللغات السامية كالعربية.

الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم	اهدنا	نعبد إياك نستعين	الحمد	لله رب العالمين
				لرحمان رحيم لملك يوم الدين

ففي هذا الجو المفعم بالدعوات كان لزاما اعتماد أصوات معينة؛ تترجم التضرع والخشية والرجاء حتى تكون الاستجابة، وهذا يعكس علاقة الأصوات بالألفاظ التي جعلت من أجلها، فتوظيف أصوات بعينها، وإسقاط أخرى في (الفاتحة) له دلالات إعجازية، إذ يرى الفخر الرازي أن "هذه السورة لم يحصل فيها سبعة أحرف وهي: الناء والجيم والحاء والزاي والشين والطاء والفاء. والسبب أن هذه الحروف السبعة مشعرة بالعذاب، فالناء تدل على الويل والثبور، والجيم أول حروف اسم جهنم، وأسقط الحاء لأنه يشعر بالخزي، وأسقط الزاي والشين لأنهما أول حروف الزفير والشهيق، وأيضا الزاي تدل على الزقوم، والشين تدل على الشقاوة، وأسقط الطاء لأنه يدل على لظى، وأسقط الفاء لأنه يدل على الفراق".¹ وقد مثل الرازي لكل صوت من هذه الأصوات بآيات من القرآن الكريم.

إلا أن المبحر في أي القرآن الكريم يجد أن كثيرا من ألفاظ النعيم في القرآن بدئت بهذه الأصوات المسقط، فكأن من الإعجاز الصوتي أن تدل هذه الأصوات على العذاب وعلى النعيم معا. وما توصلت إليه أن هذه الأصوات المسقط مشعرة بالنعيم.

فـ(الثناء) تدل على الثبات "والثبات بمعنى البشارة".² في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتِي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.³ والمعنى أن الله مع الملائكة لأنهم حملة العرش، والأمناء على العباد، يدعوهم ليبشروا المؤمنين بأن الله معهم في الدنيا بنصرهم، وفي الآخرة بأن يكونوا من الفائزين بجنته. كما يدل (الثبات) على "شهادة أن لا إله إلا الله وتلقينها".⁴

¹ - المرجع نفسه، ص.178.

² - الحسين بن محمد الدامغاني، قاموس القرآن، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، ط3، (بيروت: دار العلم للملايين، 1980)، ص.90.

³ - سورة الأنفال، الآية. 12.

⁴ - الدامغاني، المرجع السابق، ص.90.

(الجيم) "الجنة يعني دار السلام".¹ قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.² لقد خلق الله الإنسان لعبادته، ولتعمير الأرض بما يعود عليه وعلى الآخرين بالخير، وإن هذا الخير محفوظ، ليكون الجزاء جنة عرضها كعرض السموات والأرض، وهذا للتحفيز على عمل الخير، لأن الجنة ليست مكانا يحجز بالمال، ولكنها تحجز بالأعمال، فليسارع العبد إلى فعل الخيرات للفوز بالجنات.

(الخاء) الخير، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.³ الخير مفتاح الرضا، والرضا مفتاح الجنة، فمن رضي الله عنه زين له الطاعات وقبح له المنكرات، وجعله من الفائزين في الدار الأولى وفي الآخرة.

(الزاي) زيادة: (الزيادة النظر إلى الله سبحانه)⁴. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.⁵ رغم فوز المؤمن بالجنة التي وعد بها، إلا أنه يتطلع إلى الزيادة، وأي زيادة أفضل وأحسن وأعظم من النظر إلى وجهه تعالى! إلا أن هذا التطلع ليس قصرا على المؤمن، بل إن كل إنسان يتوق يوم القيامة إلى وجهه الكريم، إلا أن هذه الأمنية لا تتحقق إلا لمن أسلم وحسن إسلامه.

(الشين) الشكر بمعنى التوحيد. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.⁶ والمقصود بالشاكرين الموحدين أي من شكر الله فقد وحده، ومن وحده فقد فاز فوزا عظيما.

ومن الألفاظ المشعرة بالنعيم لفظ الشهيد بمعنى النبي، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.⁷ والمعنى أنه من أمة عرضت أمام الله يوم القيامة إلا ولها ولها شهيد يقودها، وهو نبيها الذي يتقدمها، والأمة الإسلامية يقودها الرسول صلى الله عليه وسلم.

¹ - المرجع نفسه، ص. 111.

² - سورة آل عمران، الآية. 133.

³ - سورة البقرة. الآية. 215.

⁴ - الدامغاني، المرجع السابق، ص. 221.

⁵ - سورة يونس. الآية. 26.

⁶ - سورة الأنعام. الآية. 53.

⁷ - سورة النساء. الآية. 41.

(الظهور والإظهار والعلو والقدرة)¹. قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾². يتهافت الناس على الدنيا وملذاتها، إلا أن العقلاء منهم يرون في الآخرة دار القرار، حيث التكريم الحقيقي، والمنزلة العالية، والفوز بجنتات تركوها في الدنيا فوجدوها في الآخرة.

(الفتح: النصر. والفُرُش: الدرجات. والفرقان: النصر. والفرقان: القرآن. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾³. جاءت لفظة الفتح بمعان متقاربة، والدليل أن النصر، والدرجات، والفرقان مشعرة بالنعيم وبالفوز وبالنصر. أما لفظة الفرقان في الآية فجاءت بمعنى القرآن، وسمي القرآن فرقانا لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الإحسان والإساءة. فطوبى لمن جعل الفرقان دستور حياته. فالمنتبغ للوجوه والنظائر في القرآن الكريم يجد أن كل لفظة لها أكثر من وجه حسب السياق الذي وردت فيه.

وبالعودة إلى هذه الوجوه حاولنا إيجاد العلاقة بين الأصوات المسقطّة من سورة الفاتحة وبين الألفاظ المشعرة بالنعيم، ودليلي على ذلك أن الرقم "سبعة" حمل الدالّتين معا في سورة يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرًا﴾⁴ فهي هنا مشعرة بالنعيم. أما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادًا﴾⁵ فهي مشعرة بالعذاب.

ومن الإعجاز الصوتي ارتباط أصوات الفاتحة ببداية السور التي شكلت عند الدارسين لغزا محيرا، وهي التي بدئت بحروف مثل (الم) ونجد عند شرحها قولهم: الله أعلم بمرادها.

وسأحاول ربط أصوات الفاتحة بالسور التي بدئت بحروف.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

¹ - الدامغاني المرجع السابق، ص. 313.

² - سورة غافر. الآية. 29.

³ - سورة الفرقان. الآية. 1.

⁴ - سورة يوسف. الآية. 46.

⁵ - سورة يوسف. الآية. 48.

وكلمة (الله) لم تبدأ بها أي سورة من سور القرآن الكريم. ومع ذلك حاولت تفكيك أصواتها ووصلت إلى:

الله: مع حذف الألف نحصل على (الله)، ومع حذف إحدى اللامين نحصل على (أله)، (إله)، ومع حذف الألف وأحد اللامين نحصل على (له). وجاء في التفسير الكبير "أن هذا اللفظ (الله) اسم علم لله تعالى، وأنه ليس مشتقا البتة، وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين"¹.

الرحمن: ومن أصواتها نجد:

الر: بدئت بها خمس سور (يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر) وكلها مكية منها أربع سور دلت على أسماء أنبياء.

الم: بدئت بها ست سور (البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة).

حم: بدئت بها سبع سور (غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف) وكلها مكية.

الم: بدئت بها سورة واحدة (الرعد).

ن: بدئت بها سورة واحدة (القلم).

الرحمن: بدئت بها سورة (الرحمن).

الرحيم: ومن أصواتها: الر، الم، المر، حم. وقد أشرنا سابقا إلى السور التي بدئت بها.

فالآية الأولى عدد أصواتها شكل بداية واحد وعشرين سورة باستثناء (الرحيم) فأصواتها مكررة، وهذا العدد فردي يشهد على وحدانية الله.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الحمد: بدئت بها خمس سور (الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر). ومن أصواتها: (الم، حم). ومجموع السور التي بدئت بها ثلاث عشرة سورة.

العالمين: ومن أصواتها (الم، ن) وبدئت بها سبع سور.

¹ - الرازي، المرجع السابق، ص.156.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

الدين: (ن) سورة القلم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

نعبد، نستعين: (ن) سورة القلم.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

اهدنا: (ن) سورة القلم.

الصراط: سورة (ص)، (الر).

المستقيم: (الم)، (ق).

ومن مجموع أصوات هذه الآية نستخرج بداية سورة الشعراء (طسم)، وبداية سورة النمل (طس)، وبداية سورة الأعراف (المص).

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

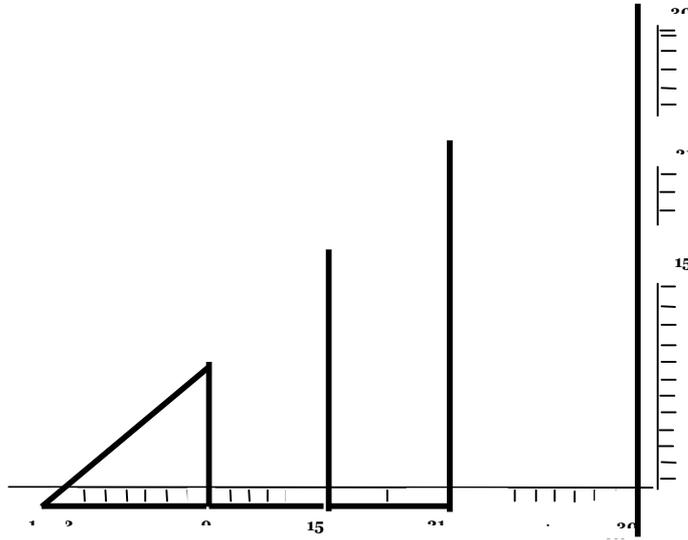
صراط: (ص).

الذين، أنعمت: (ن).

المغضوب: (الم).

ولا الضالين: (ن) سورة القلم.

وبعد تتبع الأصوات الموظفة في سورة الفاتحة والتي تمثل بداية لبعض سور القرآن الكريم، وجدت أن هذه الأصوات مكررة بنسب متفاوتة ف: (الم) تكرر ثلاثين مرة. (حم) تكرر واحدا وعشرين مرة. (الر) تكرر خمس عشرة مرة. (ن) تكرر تسع مرات. (المر+ص) تكرر مرتين. (ق) ورد مرة واحدة. أما (طسم+المص+طس) ورد مرة واحدة. وبعد إحصاء هذه الأصوات كان الناتج ثلاثا وثمانين، والذي يمثل متوسط عمر الإنسان في الحياة. وعند تمثيل هذه الأصوات المكررة بيانيا حصلت على لفظ الجلالة (الله).



بعد تحليل كلمات الفاتحة إلى أصوات، وربط هذه الأصوات ببداية بعض السور القرآنية، فإن الأرقام المبيّنة في المخطط البياني ترمز إلى عدد تكرار هذه الأصوات.

ولنا أن نتساءل لماذا بدأت السورة بـ(الحمد)؟ وما الفرق بينه وبين الشكر؟ فإذا عدنا إلى أدب الكاتب لابن قتيبة نجد أن الرجل قد أدرك الخلط الذي وقع فيه كثير من الناس فقال: "لا يفرق الناس بينهما، فالحمد: الثناء على الرجل بما فيه من حسن، تقول: حمدت الرجل إذا أثبتت عليه بكرم أو حسب أو شجاعة وأشباه ذلك، والشكر له الثناء عليه بمعروف أو لأكفه، وقد يوضع الحمد موضع الشكر فيقال: حمدته على معرفته عندي، كما يقال: شكرت له، ولا يوضع الشكر موضع الحمد فيقال: شكرت له على شجاعته".¹

في حين يرى الجرجاني أن الشكر "عبارة عن معروف يقابل النعمة سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب".² فارتباط الحمد بالتعظيم من نعمة وغيرها كان مقامه في الآية أولى من الشكر.

¹ - ابن قتيبة، المصدر السابق، ص.32.

² - الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، (القاهرة: دار الإيمان، دار القمة، 2004). ص.142.

والمتتبع لفضاءات السورة الكريمة يلحظ تألفاً بين الحروف، وتناسقاً بين الكلمات، وتناغماً مبعثه الفواصل القرآنية. فاعتماد صوتي الميم والنون ألقى مسحة جمالية على السورة، وألبس كلماتها روح الخشوع والأمل، خاصة وأن هذين الصوتين مسبوقان بصائت طويل وهو الياء، فألقت الصوائت الطويلة بظلالها على السورة، وبعثت موسيقى داخلية كشفت عن هذا التأثير وعن هذا الجمال "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيماً، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن".¹ فالاستهواء الصوتي في فواصل سورة الفاتحة نابع عن هذين الصوتين (الميم والنون) مع الصائت قبلهما وهو (الياء).

وفواصل السورة هي: (حيم- مين- دين- عين- قيم- لين). وجل المقاطع في سورة الفاتحة جاءت طويلة مغلقة (لين) في قوله (ولا الضالين) إذ تكون المقطع من صامت متحرك+ صائت+ صامت ساكن. فكان طول المقاطع في سورة الفاتحة إنما يترجم الأمل الممتد الذي لا يعرف انقطاعاً، إنه الأمل في الرحمة وفي العفو وفي الهداية (ولا الضالين).

إعجاز الرقم سبعة:

إن ما يشد انتباه الدارس للقرآن الكريم أن أول سورة عدد آياتها سبع (الفاتحة)، وعدد الأصوات المسقطه منها سبع، وآخر سورة في القرآن عدد آياتها سبع (الناس)، وروى أهل الأثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله: "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل منها ظهر وبطن، ولكل حرف حدّ، ولكل حدّ مطلع".² والأرجح أن المقصود بسبعة أحرف أنها سبع لغات. وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ فاقراً أو"

¹- الرافعي، المصدر السابق، ص.217.

²- المرجع نفسه، ص.67.

كيف شئتم".¹ فقد قرأ كل بحرفه أي بلهجته فكان ذلك سببا في اختلاف القراءات، والهدف منه التخفيف عن الأمة، والترغيب في الحفظ.

هكذا شكل الرقم (سبعة) إعجازا فتح الباب لدراسات صُنفت في باب الإعجاز الرقمي والعددي في القرآن الكريم، فارتبط هذا الرقم بخلق السماوات والأرض قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.² وارتبط بأطوار خلق الإنسان فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.³ والمراحل السبعة هي: النطفة أو الماء الدافق، النطفة الأمشاج، العلقة، المضغة، العظام، اللحم، نفخ الروح. وارتبط الرقم سبعة بالعبادات، ففي الأذان سبعة جمل: الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، الله أكبر، لا إله إلا الله. وارتبط بالزكاة في مضاعفة الأجر فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.⁴ أما في الحج فيبدو هذا الرقم جليا واضحا: في الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات. وليس في المقذور أن نلم بإعجاز هذا الرقم في هذا البحث الموجز.

الخاتمة:

سورة الفاتحة كغيرها من سور القرآن الكريم والتي كلما أمعنا النظر في مسائلها إلا وتكشفت عن أسرار لم تخطر على بال. فالسورة لم تحمل إعجازا صوتيا فحسب؛ بل حملت إعجازا لغويا وعقديا. ورغم أن السورة لم تُوفَّ حقها من البحث والدراسة إلا أنه تم التوصل إلى نتائج يمكن إيجازها فيما يلي:

- سورة الفاتحة معجزة القرآن بكل المقاييس اللغوية والفكرية والعقدية.

¹ - عفيف دمشقية، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، ط1، (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1978). ص.14.

² - سورة الطلاق. الآية.12.

³ - سورة المؤمنون. الآية.12-14.

⁴ - سورة البقرة. الآية.261.

- شكلت الأصوات السبع المسقطة إعجازا يضاف إلى الإعجاز الرقمي، والذي حظي بدراسة واسعة في مجال الفلك، وخلق الإنسان، وأمور العبادات وغيرها.
- الأصوات المسقطة شكلت إعجازا صوتيا متميزا، فقد ضُمَّت ألفاظا دالة على العذاب، وأخرى دالة على النعيم، والدليل على ذلك أن الرقم سبعة ارتبط حضوره في القرآن بالعذاب تارة وبالنعيم أخرى.
- بعد تحليل كلمات الفاتحة إلى أصوات فإن هذه الأصوات شكلت بداية سورة أو أكثر من سور القرآن الكريم.
- إن ناتج إحصاء هذه الأصوات المكررة هو: ثلاث وثمانون والذي يمثل متوسط عمر الإنسان في الحياة.
- إن الأصوات المذكورة واحد وعشرون صوتا؛ وهو عدد فردي يقبل القسمة على أرقام فردية (3-7-21) والناتج فردي (7-3-1) وفي ذلك إعجاز رقمي يدل على وحدانية الله.
- سيطر صوتا "الميم" و"النون" على الفضاء النصي للسورة، وفي ذلك دلالة على أنهما من الأصوات التي تتأثر بما يجاورها من أصوات أخرى، وبذلك كشفنا عن دلالة الرجاء والأمل في رحمة الله.
- اعتماد أصوات متباعدة المخرج أكسب الألفاظ تجانسا وانسجاما.
- اعتمدت السورة على مقاطع طويلة تتم عن طول الأمل والذي لا ينتهي إلا بالموت، أمل في الرحمة وفي الهداية وفي الثواب.
- ويتمثل بياني للأصوات المكررة والتي مثلت بداية بعض السور حصلنا على لفظ الجلالة (الله).

القرآن الكريم برواية حفص.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن جني. الخصائص، تحقيق، عبد الحكيم بن محمد، ج2، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، 1997).
2. ابن جني. سر صناعة الإعراب، تحقيق، حسن هنداوي، ج1، (سوريا: دار القلم، 1985).
3. ابن فارس. أبو الحسين أحمد معجم المقاييس في اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، (لبنان: دار الفكر، د.ت).
4. ابن قتيبة. عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، (القاهرة: دار الطلائع، 2005).
5. الأصفهاني. الراغب. معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، (لبنان: دار الكتاب العربي، 1972).
6. بادي. إبراهيم. (دلالة العنوان وأبعاده في مائة الرجل الأخير)، مجلة المدى، ع26، (سوريا: 1999).
7. بناني. محمد الصغير. النظرية اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994).
8. الجرجاني. عبد القاهر. المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق، كاظم بحر المرجان، ج1، (العراق، منشورات دار وزارة الثقافة، 1982).
9. الجرجاني. عبد القاهر. دلائل الإعجاز، تحقيق، محمود محمد شاكر، ط5، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004).
10. الجرجاني. علي بن محمد، كتاب التعريفات، (مصر: دار الإيمان، دار القمة، 2004).
11. حركات. مصطفى، الصوتيات والفونولوجيا، (بيروت: المكتبة العصرية، 1998).
12. حمداوي. جميل، السيميوطيقا والعنونة، ع3، (الكويت: مجلة عالم الفكر، 1979).
13. الخفاجي. ابن سنان، سر الفصاحة، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1982).
14. الدامغاني. الحسين بن محمد، قاموس القرآن، ط3، تحقيق، عبد العزيز سيد الأهل، (بيروت: دار العلم للملايين).
15. دمشقية. عفيف، أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1978).
16. الرازي. الفخر. التفسير الكبير، ج1، ط2، (طهران: دار الكتب العلمية. د.ت).
17. الرافعي. مصطفى صادق. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (بيروت: دار الكتب العربي، 1995).
18. مجموعة من الأساتذة، المنجد العربي، (القاهرة: د.ت). مخلوف، عبد الرؤوف، البقلائي وكتابه إعجاز القرآن، (لبنان: منشورات مكتبة الحياة، 1978).
19. مسلم. أبو الحسن مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، (القاهرة: دار الغد الجديد، 2007).